أ.د. لينا الحمصي
مفكرة إسلامية - سوريا

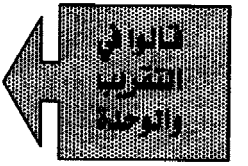

الحالة المنحرفة للطائفية *

الحديث عن الوحدة الإسلامية ومحاولة تشخيص وعلاج كل ما يوهنها ويمزّقها أمر تقتضيه الضرورة الدينية، التي تنطلق من الإيمان بما ورد في القرآن الكريم القائل: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾.

كما تقتضيه الضرورة الوقتية، حيث بات أعداء الدين والأمة يتخذون من المذهبية الفقهية، التي كانت عنصر إثراء وإغناء للفكر والفقه الإسلامي على مدى قرون عديدة، ورقة رابحة عن طريق تحويلها إلى طائفية هدّامة.

أحب أن استشهد هنا بأحد الباحثين الغربيين، وقد قدّم تقريراً إلى الأمم المتحدة منذ سنوات طويلة، حذّر فيه الغرب من تباشير صحوة إسلامية تلوح في الأفق، واقترح خطة للوقوف في وجه هذه الصحوة، لخصها في نقطتين:

١ – ضرورة وضع يد الغرب على منابع النفط والطاقة.

٢ – ضرورة التفريق بين السنة والشيعة وإثارة بذور الطائفية.

* * *

لم يعد خافياً أن ما تفعله أمريكا وأعوانها من إثارة وتفجير للنعرات الطائفية في العالم الإسلامي، ما هو إلا خطوات من مخطط طويل وعريض للوقوف في وجه الإسلام

---

* – ورقة مقدمة للمؤتمر الدولي الثالث والعشرين للوحدة الإسلامية الذي عقد بطهران برعاية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية عام ١٤٣١هـ.

ويقظة المسلمين، إذ لا يمكن للغرب أن ينسى أن المسلمين كانوا سادة الدنيا لقرون طويلة بفضل مظلة الإسلام التي جمعت تحتها شعوباً وقبائل من أطيافٍ وأجناس شتى.

لقد شكّل الإسلام عقدة وهاجساً لدى الغربيين.. إنهم يخافون أن يستيقظ المارد المسلم من غفوته ويعود إلى أمجاده...

قال ديغول عن الإسلام ذات يوم: هذا ماردٌ تداعب خصلات شعره مياهَ المحيط الأطلسي، وتداعب قدماه مياهَ المحيط الهادي.

هذا الخوف دفع الغرب للبحث الدائم عما يفتح في جدار الإسلام ثغراتٍ قاتلة، وليس أخطرَ وأقتلَ من ثغرة الطائفية البغيضة، التي بسببها تتلاشى علاقات القرابة والجوار والأخوة والمواطنة، لتحلّ محلها البغضاء والفرقة والتهميش والإلغاء والإقصاء والتوجّس والتفسيق والتكفير والتخوين، وفي لحظة غادرة من لحظات الهيجان والفلتان تدفع الطائفية أزلامها للقتل والسّحل، بتبصُّر وبدون تبصر!

* * *

لقد أحسن القائمون على هذا المؤتمر الدولي صنعاً إذ خصصوا محوراً للبحث عن خطوات فعّالة للقضاء على الطائفية.

ما أريد أن أقوله في البداية هو أنَّ الطائفية المقيتة ليست أن يحب المرء طائفته المذهبية أو الدينية أو العرقية، ولكن الطائفية التي نبغي محاربتها هي أن يتعصّب الإنسان ويتشنّج حتى يصل إلى مرحلةٍ يرى فيها شرار قومه خيراً من خيار الأقوام الآخرين.

وليست الطائفية أن ينصر المرء المظلومين من طائفته، ولكن الطائفية التي نحاربها ونمقتها، هي أن يعادي الآخرين ويرفضهم ويغمطهم حقوقهم، ويمالئ أبناء طائفته الظالمين، ويساعدهم في ظلمهم للآخرين.

باختصار: ليست الطائفية الانتماء لطائفة معينة، فهذا أمر طبيعي، وهي من طبيعة المجتمعات البشرية، التي تحفل بتعدد الأديان والمذاهب والقوميات، ولكن الطائفية هي تلك التي تحوّل الدين أو المذهب أو العرق إلى هوية وانتماء، وتشعل النزاعات بناء على تلك النظرة المقزّمة الممسوخة، التي تعادي الآخر لمجرد أنه آخر، وهذه الطائفية مرض فتّاك، يستخدم الأفراد ليفتك بالأمم والشعوب.

* * *

طبعاً لا ننكر دور العالم الخارجي: أمريكا وأخواتها من دول العنجهية والغطرسة والاستعلاء والاستكبار، في إشعال وتأجيج النزاعات الطائفية وتفكيك الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية، فهذا أمر بدهي بات يعرفه الصغير والكبير، العالم وغير العالم..

ولكن المشكلة هي أن الكثيرين يكتفون بشمّاعة المؤامرة الغربية ضد المسلمين، فيعلّقون عليها كل المشاكل والخطايا والرزايا والبلايا التي تعصف بالعالم الإسلامي عصفاً وتقصفه قصفاً، ويغلقون أعينهم عن رؤية بانورامية شاملة للمشكلة، ويكبلون عقولهم وأيديهم عن القيام بأي دور فاعل في مواجهة هذه النزاعات الطائفية.

أقول: نظرية المؤامرة هذه رغم صحتها هي من الأمور المضحكة المبكية.!!

فصحيح أن الغربيين يتآمرون ضد الإسلام والمسلمين، وهم لا يألون جهداً في نشر كل ما يملكونه من أسلحة عسكرية وفكرية واقتصادية، ظهر منها ما ظهر، وخفي منها ما خفي.

وصحيح أيضاً أن سلاح التفرقة الطائفية بين السنة والشيعة هو أحد أسلحتهم المدمرة، وهذا أمر لا يخفى على أحد، ونلمسه اليوم في الأحداث الرهيبة التي تحدث بين مسلمي العراق.. سنة وشيعة.

ولكني أحب أن أقول:

ليس مدهشاً ولا غريباً أن يحاول أعداء الإسلام ضرب وحدة المسلمين، واختراق وحدة الصف الوطني في كل بلد عربي وإسلامي على حدة، من خلال إشعال بذور الطائفية والعرقية والإثنية، فالعدوّ عدوّ، ولن يألو جهداً في إشهار جميع أسلحته، ما دام في هذا خدمة لمصالحه، ولو كان هذا على حساب القيم الأخلاقية والديمقراطية، ومن غير المجدي أن نقول للعدو: هذا عيب وهذا حرام..

ولكن المدهش والغريب والفظيع أن نجد من أبناء المسلمين وزعمائهم من يسوّق ويروّج بضاعة العدو تلك، فيبيع نفسه ودينه وقوميته ووطنيته لخدمة المآرب الاستعمارية، عن حسن نية أو سوء نية، وتحت أقنعة متعددة، تتخذ مطيّة الرغبة بتنقية الدين من الشوائب أحياناً، وتعزف على أوتار الوحدة القومية والعرقية والإثنية أحياناً أخرى.

وقد صدق الشاعر حين قال:

ما دخل اليهود من حدودنا

وإنما تسرّبوا كالنمل من عيوبنا

وهنا أتساءل: من يسنّ القوانين التي تساهم بشكل أو بآخر في إذكاء نار الطائفية؟

من يغذّي الثقافة التي تنفخ في أوار الطائفية وتمدّها بالوقود؟

من يمتلك ناصية المجلات والجرائد الرسمية والمستقلة؟ ومن بيده آلة توجيه القنوات الفضائية والإذاعية العربية والإسلامية؟ هل هم الغربيون.. أم نحن؟!

* * *

لقد شهد العالم الإسلامي فيما مضى صوراً مشرقة من التعايش السلمي والإيجابي بين أتباع المذاهب الإسلامية، بعضهم مع بعض من ناحية، ومع أتباع الديانات الأخرى من ناحية ثانية، في حين كانت المجتمعات الغربية تعيش على النزاعات الطائفية الدينية بين الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، ولسنا ننسى الحروب الأهلية العرقية والإثنية في أمريكا وأوروبا.

ولكن، هل ينفع الترنم بذكريات وأمجاد الماضي، ونحن نرى النزاعات الطائفية تشتعل في بقاع من بلدان العالم الإسلامي، ويكاد يمتد أوارها ولهيبها ليصل إلى دول شتى؟

بينما نرى العالم الأوروبي اليوم يتناسى خلافاته، ويتحد ليحقق أهدافه المشتركة، على الرغم من تنوّعه القومي والعرقي والديني والمذهبي، وعلى الرغم من الدماء التي سالت في الماضي جرّاء الحروب المجنونة التي التهمت أبناءه وخيراته!!

* * *

لا شك أن مسيرة الوحدة الإسلامية تمرّ اليوم بانتكاسة مؤلمة، ولكن.. هل يجوز أن نسمح لهذه الانتكاسة أن تأكل وحدتنا، وتلتهم طموحاتنا، وتبدّد أحلامنا!!

هل يجوز أن نستسلم ونتخاذل ونتكاسل بحجة: ما باليد حيلة!!

أم العكس هو الصحيح!!

يرى عقلاء الأمة أنه يجب علينا أن نستفيد من هذه الانتكاسة، فنستيقظ أمام لهيب النار المستعر، ونمسك بمخراطيم الإطفاء لنهمد الطائفية وندحرها!!

إنها مسؤولية يضطلع بها القائمون على جميع الأصعدة: الرسمية وغير الرسمية،

الدينية والإعلامية والثقافية والقانونية والفنية والتربوية!

عليهم أن يتنادوا لوضع خطة واستراتيجية لوقف أخطبوط الطائفية الذي يهدد وحدة الصف الإسلامي أمام قوى الاستكبار العالمي!!

أنا أعتبر هذا المؤتمر وأمثاله خطوة ضرورية ومهمة في العمل على وضع هذه الخطة والاستراتيجية، رغم تشكيك البعض (سنة وشيعة) في أهمية وقدرة هذه الدعوات التقريبية على إطفاء نار الطائفية وطمس لهيبها.

ولهؤلاء أقول:أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام!

على الذين يبحثون عن السلبيات فقط أن يفتحوا عيونهم لرؤية الإيجابيات، وأن يبحثوا عن السبل الممكنة لتدارك السلبيات..

فالإيجابيات من هذه المؤتمرات كثيرة جداً، ومن أهمها تعرّف علماء الطرفين على بعضهم عن قرب، وهو أمر هام يزيل العداوة ويكشف اللبس ويوطد المحبة ويمتّن الحجة...

وغياب هذا التعارف والتآلف عن الشرائح الشعبية، وبقاؤه ضمن بوتقة محدودة جدا، هو على رأس المشاكل التي تحتاج إلى حل، لذا.. فإنّ علينا أن نوصل هذه الجهود والأصوات التقريبية إلى أكبر كمّ من السنة والشيعة، وذلك من خلال التركيز على الأمور التالية:

١- تسليط الضوء على الثوابت والأصول المشتركة بين السنة والشيعة وما أكثرها!!

والتنبيه إلى أن الاختلافات بين المذاهب الإسلامية هي مصدر تنوّع وثراء للفقه الإسلامي، ولا يجوز أن تقود إلى التعصب والانغلاق الطائفي بحال من الأحوال، والاستشهاد على هذا باحترام أرباب المذاهب لبعضهم البعض في ظل اختلاف الآراء وتنوّع المفاهيم.

٢- محاولة تناسي الأحداث التاريخية التي تؤجّج نار الطائفية، أو في أقل الدرجات وضع هذه الأحداث في سياقها التاريخي الماضي، الذي لا يجوز استثماره في الوقت الراهن لتأجيج الطائفية، ولا ينبغي له أن يحتل مكان الصدارة لدى الحديث عن العلاقة بين السنة والشيعة.

ومن المهم في هذا السياق التأكيد على أن بداية التقارب بين السنة والشيعة ليست

وليدة الحاضر، ولو كانت كذلك لكانت ولادة متأخرةً مشوّهة مبتورة، لا تملك مقوّمات العيش والاستمرار والنجاح. فالنبتة لا تزهر ولا تثمر بدون جذور، و جذور عيشنا ووحدتنا و تعاوننا وتماسكنا تمتد راسخة في رحم التاريخ.

علينا في هذه المرحلة أكثر من أية مرحلة سابقة أن نحيي التراث الوحدوي بيننا، ونستدل بأحداث تاريخية تقوّي هذه الوحدة، وتدحر الطائفية، بدءاً من أقوال الإمام علي رضي الله عنه ومروراً بأقوال الأئمة والعلماء من الجانبين السني والشيعي.

٣- مقاومة المتطرفين من الجانبين:

لا شك أن وجود المتعصّبين والمتطرّفين من الطرفين" السنة والشيعة" يساهم في زرع الشائعات وتحويلها إلى حقائق في أذهان الكثيرين، وقد كان لهذا دوره الذي لا ينكر في تعميق الخلاف وتوطيد الطائفية، وخصوصاً في ظل ضعف الأصوات الوسطية، ومحدودية قدرتها على التأثير على الشرائح الشعبية الهشة، التي تنساق وراء الصوت الأقوى والأعلى والأنشط.

يؤلمني أن أستشهد لما أعنيه بقول أحد الدعاة على إحدى القنوات الفضائية: إنَّ إيران وإسرائيل وجهان لعملةٍ واحدة..

طبعاً شيء مؤلم جداً أن ينساق علماء الدين وراء ما يبتغيه الحكام في بلادهم، وينسون أن السياسة في معظم أحوالها لا دين لها سوى البراغماتية والميكافيللية، إلا ما رحم ربي!!

وبناء على هذا اقول:

كيف لنا أن نقاوم الطائفية وننشر ثقافة التسامح في ظل وجود متطرفين يعزفون على وتر التكفير والتفسيق لمن يخالفهم في المذهب!!

وكيف يمكن أن نحارب الغلو الطائفي والتعصب المذهبي ونحن نرى بين الفئتين من يحاول دعوة الآخرين إلى مذهبه، على اعتبار أنه لا نجاة لهم إلا بذاك!!

في الحقيقة لا يمكن لنا أن نقاوم الطائفية وما تؤدي إليه من نزاعات، حتى نرى صوت المعتدلين هو الصوت الأعلى والأعم والأشمل والأقوى.

من روائع أقوال الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية آية الله الشيخ محمد علي التسخيري حفظه الله قوله: أنا أتبرّأ من أي كتاب للشيعة يسبّ أو

يسيء للسنة، كما يتبرأ أهل السنة من أي كتاب يسيء للشيعة.

وقوله: يوجد في جميع المذاهب الإسلامية حمقى، وعلى عقلاء كل مذهب أن يؤدبوا سفهاءه".

٤- ومن الخطوات المهمة للقضاء على الطائفية استخدام وسائل الإعلام بجميع أنواعه المسموعة والمقروءة والمرئية لنشر ثقافة الوحدة والتسامح.

لا يمكن لأي إنسان أن ينكر خطورة الإعلام، وأنه سلاح ذو حدين، يستخدم لزرع الفضائل والقيم والخصال الحميدة ونشر العلم وتطويره، كما يستخدم أيضاً لترويج العهر والفسق والمجون، وتدمير الأخلاق ونسف القيم، وبث الجهل والخرافة والكسل والكراهية والتمزق.. وقد يصل إلى حد التطاول على الحقائق بقلبها وتشويهها ومسخها وتقزيمها.

كم نحن بحاجةٍ إلى ضبط قنواتنا الفضائية كي لا تتحول إلى ساحاتٍ للمعارك الفكرية والثقافية والدينية، يتعارك فيها سني من هنا وشيعي من هناك، كل منهم يرمي الكرة إلى ملعب الآخر، تحيّناً لفرصة يتم فيها تسجيل الضربة القاضية!

مسلسل درامي واحد أو فيلم سينمائي أو برنامج ثقافي يشوّه الحقائق ويطمس المحاسن، يهدم ما تحاول هذه المؤتمرات وأمثالها من الندوات والمحاضرات والجهود الجبارة أن تفعله لضمّ الشمل وتحقيق الوحدة.

يؤلمنا جميعاً أن تُستخدم بعض القنوات الفضائية اليوم لترويج الطائفية والتعصب المذهبي.

طبعاً لا يكفي أن نتألم، ولا أن نستنكر أو حتى نسفّه..

ولن يفيدنا أن نقول للآذان المتلقّفة: لا يجوز أن تتابعوا هذه البرامج لأنها قنابل موقوتة تريد أن تغتال عقولكم وتجعلها حبيسة الماضي المشوّه والمقزّم..

وقديماً قيل: إن الحديد بالحديد يفلح، ولذلك فإنني أقترح على المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب اتخاذ خطوات عملية تتلخص فيما يلي:

أ -إصدار جريدة أو مجلة مشتركة في كل بلد إسلامي يوجد فيه السنة والشيعة، تخاطب الفئات الشعبية ذات الثقافة المتوسطة بلغة سهلة جذابة محببة إلى القلوب، إلى جانب مجلة "رسالة التقريب" التي يصدرها المجمع بلغة علمية عالية، وهي مجلة نخبوية

موجهة إلى أصحاب الدرجات العلمية العالية، وهناك حاجة إلى مجلة شعبية موجهة إلى كل الناس.

ب – تزويد الموقع الالكتروني للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب بمقالات مكتوبة بأسلوب سهل مبسّط يفهمه ويستوعبه كل من يطلع عليه.. وباللغة الفارسية والعربية والانجليزية، إلى جانب تأسيس مواقع أخرى تحمل الأهداف ذاتها.

ج – تأسيس قناة فضائية مشتركة بين السنة والشيعة، يركّز فيها على نقاط التلاقي والاتفاق وما أكثرَها، متخذين من شعار: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) أساساً للتلاقي والوحدة والتعاون.

ولا يجوز لي أن أغفل هنا الدور الهام الذي تقوم به بعض القنوات الفضائية الشيعية المعتدلة من استضافة لبعض علماء السنة، كقناة المنار والكوثر والعالم، أو ما تقوم به بعض القنوات السنية المعتدلة كالرسالة واقرأ من استضافة بعض علماء الشيعة، وهي خطوات هامة، ولكنها لا تكفي وحدها في ظل وجود القنوات المتشددة الكثيرة، والتي تبث البرامج المغرضة والهدامة، وتؤجّج نار الفرقة والشرذمة، ولا يخفى ما تتركه هذه البرامج من أثر في عقول الناس ونفوسهم، الأمر الذي يفسد دعاة التقارب جهودهم الجبارة المبذولة لخدمة التقارب والوحدة والتآلف...

ألم يئن الأوان أيها الإخوة إلى نبذ أحقاد الماضي وتجاوزها؟

ألم يحن الوقت لنأخذ على أيدي المغالين من الطرفين سنة وشيعة؟

ألا يجب علينا أن نتجاوز التنظير والتخطيط إلى التفعيل والعمل الدؤوب؟

كم هو رائع ومفيد أن نتجاوز حدود المقالات والخطابات والهتافات، ونبدأ بتنفيذ بعض الخطوات الفعلية والعملية التي تضع أقدامنا على الطريق الصحيح للوحدة الإسلامية!!

لا بأس بأن تكون الخطوات في البداية خجولة ومتواضعة، فطريق الألف ميل يبدأ بخطوة..والله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

ويقول: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، والسلام عليكم ورحمة الله.